حكايات مدائن

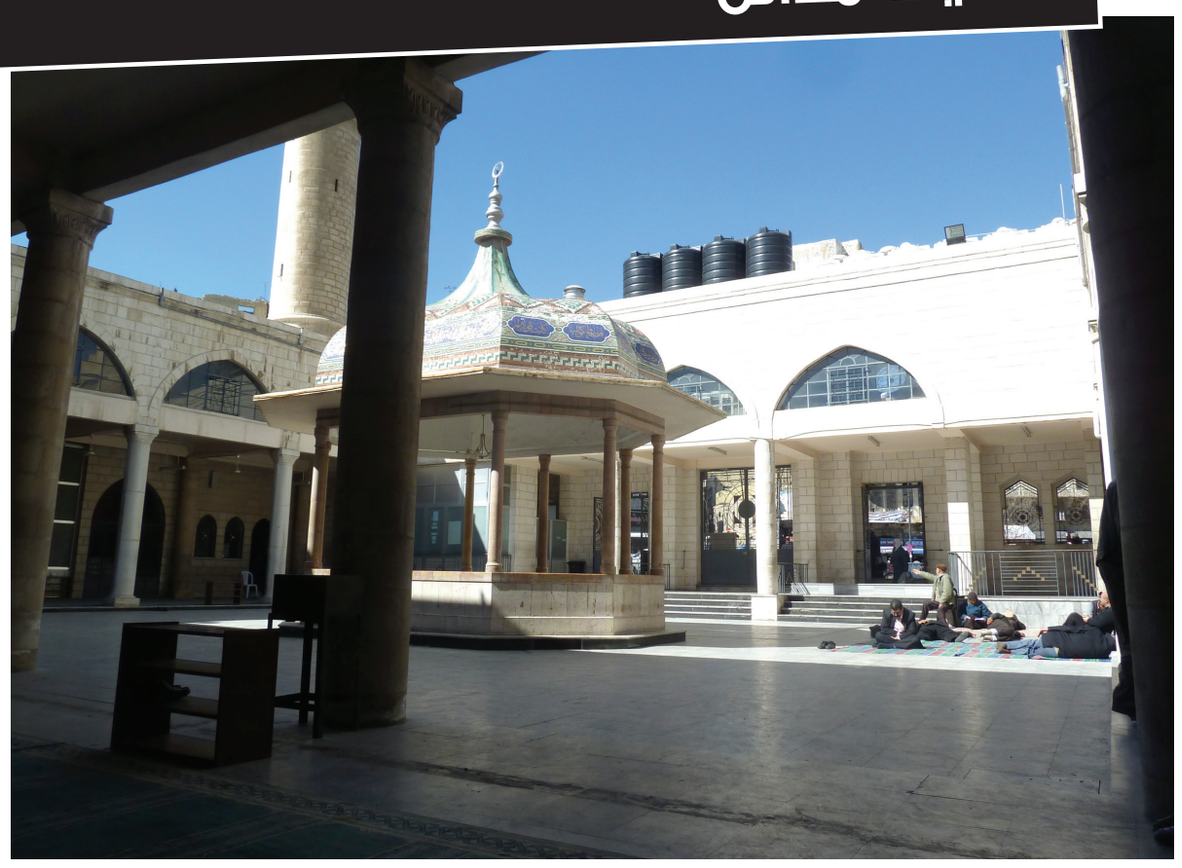

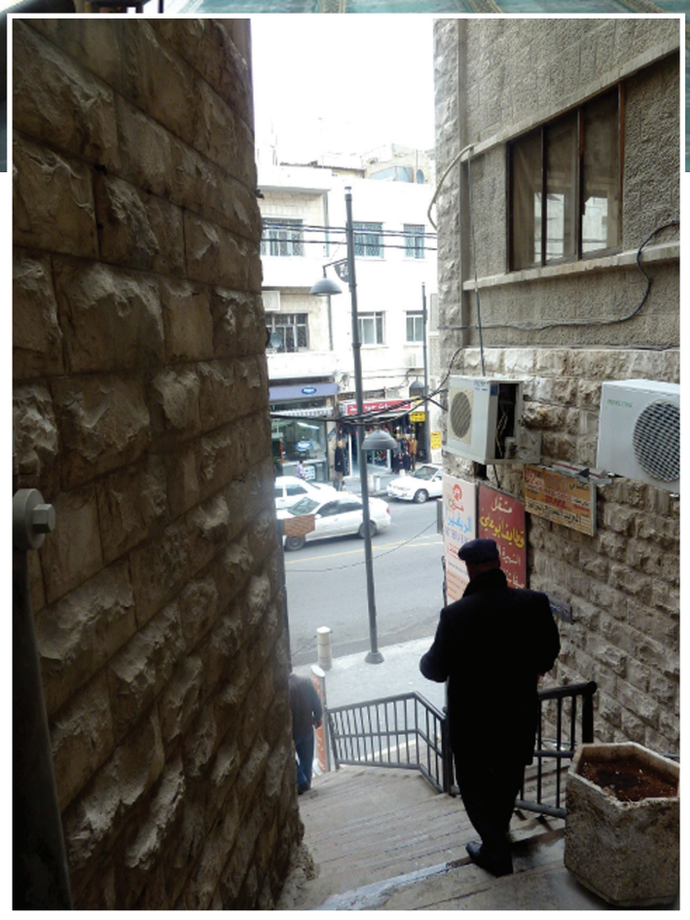

مدينة عمّان «الجزء الرابع» :

رمضانيات من مدينة عمّان

د. وليد أحمد السيد
Sayedw03@yahoo.co.uk

في أيام رمضان الطوال يحلو الصيام، وفي لياليه المقمرات من أيام الصيف يحلو السمر والسحور والتذاكر مع الأهل والصحب الكرام. لرمضان في أيام خلت ذكريات حلوة جميلة لا تمحوها الليالي ولا مر الأيام. تمر السنون سراعا، مذ كنا أطفالا صغارا نحلم بمجيء شهر رمضان. كان الشهر الفضيل ولا يزال شهرا علما بين أشهر العام. لا يداني حلاوته أو روعة الذكرى به أي شهر مهما كان. بعد أيام يطالعنا الشهر الكريم مجددا، أعاده الله علينا وعليكم وعلى أمة الإيمان بالخير واليمن والبركات والإيمان.

يوم من أيام رمضان

ألقت شمس الظهيرة لهيبها الحارق على الوسط التاريخي لمدينة عمان. في قلب المدينة النابض، وقبل حوالي عقدين من الزمن، كانت ساحة الجامع الحسيني الكبير في وسط المدينة تضج بالحياة، تعج، وتضج، وتموج بالجموع الهادرة، الرائحة والغادية، في محيط الجامع الكبير. تحت ظلال واجهته الأمامية، كانت تقف مئذنتان على الطرفين الأبعدين، كحارسين أمينين، ترميان بظلالهما على الورى وهم غادون ورائحون سعيا وراء حوائجهم. للناظر كانت المئذنتان تشرئبان بسمو وعلو وقداسة نحو السماء، ويكاد الرائي أو يخال إحداهما وكأنها تتعالى طولا على الأخرى، وهي كذلك فعلا، إذ كان طولها متفاوتا. تحت ظلال المآذن، وعلى امتداد الظل واجهة الجامع، الكبيرة والوحيدة، المترامي على أرض الشارع، راح الناس ينقلون خطواتهم جيئة وذهابا. كانت جموعا غفيرة فيما مضى، حيث كان في الجامع وساحته والمتاجر الملاصقة والمحيطة حياة كثيرة مديدة، ما قصفها إلا مؤامرة «حضرية» نقلت مركز المدينة التجاري من هذا القلب النابض إلى ضواحي عمان وأطرافها حيث ترامت «صناديق» تجارية ضخمة، اسمها «المولات»، عصفت بحياة القلب النابض ومحت جميل الذكريات، وسحبت الروح من الوسط التاريخي. وتلك حكاية لنا معها وقفة طويلة قادمة. تعالى صوت أذان الظهر من مكبر الصوت المثبت على مئذنتي المسجد الجامع. راحت أرجل المصلين، المؤمنين بيوم الحشر العظيم حين يغرق العباد فيه في عرقهم كل بعمله إذ تدنو الشمس من رؤوسهم يومئذ، راحت تحث الخطى تجاه البوابات المشرعة على الواجهة الرئيسة للجامع. على الباب وقف بعض رواد الساحة يطالعون المصلين، بعضهم راح يستجدي، مؤملا المصلين والمحسنين في حسنة يلقونها يوم يقوم الناس لرب العالمين. البعض الآخر من الواقفين على الواجهة الكبيرة كانوا ينتظرون أهلا لهم أو أصدقاء ضربوا لهم موعدا محددا بأذان الظهر، كي يمضوا لحوائجهم ويرتادوا الأسواق المحيطة بالجامع، يبتاعوا مواد تموينية وبضائع رمضان.

في رحاب الجامع الحسيني الكبير

عبر البوابات الكبيرة، ومن خلال النوافذ الفسيحة التي يغطيها الحديد المشغول على واجهة الجامع الكبير، يخطو المصلون خطوتين قبل أن يتوقفوا أمام عتبة تفصل الساحة خارج الجامع عن داخله. بعد هذه العتبة لا بد من خلع النعال. يقف المصلون احتراما وإجلالا لحرم الجامع ولساحة الداخلية الذي تتوسط فناءه المركزي الكبير ميضأة عظيمة الحجم عليها ما يشبه القبة المحمولة على عدة أعمدة رخامية. في القديم كانت الميضأة تنضح بالمياه، وكان الوضوء في ظل الميضأة وتحت الشمس في أديم الفناء الفسيح متعة وانتعاشا للروح والبدن في لهيب الحر القائظ آنئذ. كنت ترى قطرات الماء تتحدر من أكواع المتوضئين، وقد تربع أحدهم على المقعد الحجري الذي يحيط بصحن الميضأة وقد انساب الماء في خرير «موسيقي» عذب، مشنفا الآذان، ومرطبا القلوب العطشى التي انهكها صوم الشطر الأول من اليوم. الصحن المفتوح على السماء كانت صفحة الماء في ميضأته تجاوب زرقة الماء فيه لون السماء. يموج الماء في الميضأة، وتتناثر قطراته وتتبعثر على أيدي وجبهات ووجنات المتوضئين. كان مشهدا يريح الناظرين الجالسين في الأروقة الثلاثة المحيطة بالفناء، والتي رفعت على أعمدة حجرية ضخمة مهيبة. كنت ترى المصلين، أو المتأهبين للصلاة وقد جلس أحدهم بعد ركعتين خفيفتين في ظل أحد الأروقة الثلاثة، وقد أرخى لناظريه العنان كي تتنعم في هذا المشهد الروحي البديع. مشهد القلوب والأفئدة الطائعة لربها، وقد أرهقت أكبادها من العطش في حر يوم من أيام رمضان. تصطف بتناوب على الميضأة لتسبغ الوضوء على الجوارح كي تغسل خطايا الروح بمياه طيبة طاهرة نقية عذبة، هي أحوج ما تكون إليها لترطب أكبادها بها. لكنها، وهي تعلم أن الرقيب الحسيب عليها هو الله سبحانه، والصوم لله وحده، دون بقية العبادات التي قد يدخلها الرياء إذ يطلع عليها العباد، لكن الصوم عبادة خفية بين العبد وربه، يعلم الصائم الصادق من الكاذب المتظاهر المنافق. هذه الأرواح السعيدة التي هامت حول الأنوار الربانية في الأزل، حين مسح الله تعالى على ظهر آدم وأخرج له ذريته من ظهره فهامت حول نور الهداية فاهتدت، كانت تأبى أن يلامس الماء أفواهها بمقدار أكثر مما ينبغي لإتمام الوضوء. فالصوم والصلاة مقترنان في هذا الشهر العظيم. وكما يردد عامة الناس في رمضان، فيمن يصوم ولا يصلي، كانوا يقولون له: الصائم بلا صلاة كالراعي بدون عصاه. ولعظم قدر الصوم، روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه في حديث صححه الألباني في صحيح الترغيب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث قدسي يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:«كل عمل ابن آدمَ له ؛ إلا الصومَ ، فإنه لي ؟ فقال : إذا كانَ يومُ القيامة يحاسبُ اللهُ عز وجلَ عبدَه ، ويُؤدي ما عليه من المظالمِ منَ سائر عمله ، حتى لا يبقى إلا الصومُ ، فيتحمَّلُ اللهُ ما بَقِيَ عَليه من المظالم ، ويُدخله بالصوم الجنةَ». (صحيح الترغيب الصفحة :٩٧٨، خلاصةُ حكم المحدث: صحيح). وفي حديث آخر في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كل عمل ابن آدمَ يُضاعفُ الحسنةُ عشرةُ أمثالها إلى سبعمائةَ ضعف. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: إلا الصومُ. فإنَّهُ لي وأنا أجزيَ به. يَدَعُ شهوتَه وطعامَه من أجلي. للصائم فرحتانِ: فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربِّهِ. ولخُلوفُ فيهِ أطيبُ عند اللهِ من ريح المسك». وفيما ترتفع حنجرة المؤذن مرة أخرى لإقامة الصلاة، تتدافع جموع المصلين لتسوية صفوفهم بين يدي خالقهم. تصطف الأبدان، وتنتظم الأرواح في استواء وتواضع أمام حضرة خالقها. تحاذى المناكب بالمناكب، والكتف بالكتف، وتسقط الألقاب والرتب الدنيوية ويستوي الجميع سواسية خلف إمامهم مرتلين أم الكتاب وقصار السور ومؤممين وراء الإمام، راكعين وساجدين. وإذ تنفض الصلاة، تأوي بعض الأبدان المتعبة لجوار الأعمدة الضخمة في محيط صحن الجامع. وعلى الفور تقام صلاة جامعة في الرواق الجنوبي لمن فاتته صلاة الجماعة الأولى. يقدم المصلون إماما منهم، يلحقونه في تكبيرة الإحرام وفي ركوعهم وسجودهم وتسليمهم بعد تمام ركعات الصلاة. وما أن يختم الإمام الثاني حتى تقام صلاة جامعة ثالثة لمن فاتته الصلاة في الجماعتين الأوليين، وهكذا حتى قبيل دخول وقت العصر. فالجامع قد أضحى موئلا «وجامعا» للطائعين المؤمنين الذي تلتقطهم الساحة الخارجية للجامع، لتقودهم إلى الميضأة في صحن الجامع قبل أن ينتظموا في صفوف متراصة خلف إمام. مشهد بديع يتكرر على مدار الساعة، ذات المشهد ولكن بشخوص وأفراد تتناوب على مناجاة خالقها. الكل يدعو، ويطلب، ويستغفر، من أفواه جفت حلوقها عطشا، وقد تغيرت رائحتها من أثر الصوم، لكن الخالق المبدع الواحد، الذي برأ البرية، يسمع ويجيب، ويقبل ويغفر، ويقرب ويعطي، ويمحو ويعفو، ويرفع الدرجات ويقيل العثرات. سبحانه لو قام الخلق كلهم، إنسهم وجنهم، في صعيد واحد فسألوه جل جلاله فأعطى كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده، سبحانه وهو الغني، إلا كما ينقص المخيط (الإبرة) إذا أدخل البحر. وإذ يدخل وقت العصر يتكرر المشهد من الساحة حتى قلب الجامع وصالته الداخلية المكتظة، ولكن مع جموع تتزايد وتتكاثر وقد باتت تنتظر قرب موعد الإفطار. من يبغي الإفطار في الجامع وقت صلاة المغرب تراه يدنو ويقترب أكثر فأكثر من الصف الأول. ومن عنده حاجة، أو له أرب في الإفطار مع أهله تراه يخرج ساعيا في حاجاته، شاريا مستلزمات بيته. وإذ تزول الشمس من كبد السماء، وتنحو تجاه الغرب، تستطيل الظلال في قلب ساحة الجامع، وتخف درجة الحرارة شيئا. يخف نور الشمس ويحل مكانه ظلال دفيئة. وفي هذا المشهد يطل بائع السوس والتمر هندي وقد التف حوله الصائمون. يعبئ لهم مطلبهم في أكياس من البلاستيك، وترى الجمع وقد تدلى من أيدي أحدهم أكياس السوس وقد ولى ساعيا شطر سيارة تنقله كي يصل لأهله في موعد قبل الإفطار. في الطرف الآخر من وسط البلد وعلى منتصف درج شهير، ثمة دراما أخرى تدور رحاها، حيث محل قطايف أبو علي الشهيرة، ذلك المحل الصغير الذي يقبع في زقاق علي درج طلوع الخيّام. وقد أخذ هذا المحل مجده وعزه قبل انتشار محلات للقطايف والحلوى توالدت كالأرانب يمنة ويسرة. وهنا يطالعك مشهد طابور لشراء القطايف يمتد صعودا ونزولا على الدرج، وقد راح القوم يسترحمون عقارب الساعة كي تتباطأ إلى حين يشتري أحدهم حاجة المنزل من القطايف والعودة قبل موعد الإفطار. وعلى مقربة من درج القطايف أو طلوع الخيّام، ينتشر قبل الإفطار جالسا من ليس عنده أهل أو أقارب في مدينة عمان. ترى قوما قد افترشوا الرصيف، أو امتدت طاولات مطعم شهير للفول والحمّص هو مطعم هاشم. وعلى هذه الطاولات الصغيرة التي تطاولت على الرصيف الخاوي وتمطت على أديمه، تقبع صحاف الفول والحمص، وكاسات الشاي الساخن وبضع تمرات وكوب ماء وأرغفة الخبز الساخن. يجلس القوم بانتظار «مدفع الإفطار» وليس هناك مدفع اليوم في عالم أثير الإعلام المسموع والمرئي الذي استبدل هذه المعالم التاريخية بشاشات تلفزة، حولت المشاهد الأصيلة إلى مظاهر مصطنعة معولمة، لا روح فيها ولا حياة.

بعد الإفطار .. القيام والسحور

اعتاد القوم أن يستقبلوا شهر الصيام، بالتزود المحموم بالمواد التموينية وكأن الحرب العالمية الثالثة ستقوم. لترى بعد واقعة، أو «غزوة» الإفطار وقد تناثرت الصحاف والكؤوس الفارغة صرعى كأنها أعجاز نخل خاوية، لا تكاد ترى لها من باقية. ومن ترك ثلثا لنفسه، ولم تدركه التخمة، تراه وقد استعد للخروج لصلاة التراويح. وفي صلاة التراويح ما فيها، من جمع وجماعة.

وإذ يتزاور القوم في رمضان، وتكثر المناسبات «والعزومات»، وجلها لا لفقير ولا لإطعام مسكين، بل فيها ما فيها من المجاملات، أيام كان هناك متسع للمجاملات قبل الأزمات الاقتصاديات الطاحنات، التي عكرت الأجواء وحلت بالملمات، على جموع القوم المرائين والمرائيات. وبعد التراويح، تصفو النفوس، ويجتمع الأهل، ويحلو السمر والترويح عن النفس بما طاب من الشراب «الرمضاني»، كالسوس، وجلاب الحبايب، والخرّوب، وتمر الهندي، وقمر الدين. وتجتمع القلوب على حب القطايف، وحلاوة الجبن، والحلوى. ينام الصغار مطلع الليل، وتوقظهم هزات رفيقة من الأهل، وصوت دمدمات طبل «المسحّر» في الشارع القريب، للاستعداد ليوم جديد من أيام رمضان المبارك. تجتمع العائلة مجددا وقت السحر للتزود بتمرات أو قطرات عسل ولبن ليوم آخر من أيام شهر فضيل، فيه ليلة خير من ألف شهر، يعلن اليوم الجديد آذان الفجر، الذي يتردد عبر أثير الصمت في فضاء الليل الهادئ. ينوي الصائمون نية صوم الشهر كاملا، كما ينوون صوم كل يوم منفردا. فبصوم الشهر يتقرب العبد من ربه، كما تصحّ الأجسام ويخرج ما بها من كدر وعكر وسموم تراكمت طوال العام لا يزيلها إلى صوم وجوع، كما أثبتته البحوث في أعتى الجامعات الغربية حيث بات غير المسلمين يحسدوننا على عبادة الصوم، وينظرون لها كأفضل أنواع الحمية التي تصحح ما اختل في الجسم. فهل وعى المسلمون عظيم دينهم وحكمة مشرّعهم، أم كان رمضان شهرا للتزود بما لذ وطاب وزيادة بضعة أرطال من الحلوى والقطايف وأطايب الطعام؟

في شهر رمضان، تنزل الرحمة، وتطلب المغفرة، وفي آخره تعتق رقاب من النار. ونستذكر فيه من رحل عن هذه الدنيا، في هذا الشهر الفضيل. والد أحد أصدقائنا سمعته يقول بعد إفطارنا في بيته، وقد رحل قبل شهرين عن هذه الدنيا: أنا ذاهب لآخذ الجائزة الكبرى. قلنا له وما هي؟ قال جائزة من ربي حين ألقاه. وعدني بها في الصيام والقيام، وذهب يسعى حثيثا للمسجد وقد جاوز الستين آنئذ. رحمه الله رحمة واسعة. ندعو لهم ولعامة المسلمين بالرحمة والمغفرة والعتق من النار في شهر تنزل فيه القرآن على خير الورى والأنام. كل عام والأمة بحال أفضل وبخير، وتقبل الله من المؤمنين خالص الأعمال ورفع الدرجات وتجاوز عن السيئات.